أصدقائي

حكاية الدب الأبيض



تأليف
حمدي عمارة

رسوم
منال بدران

الدار المصرية اللبنانية

أقبل الليل ولاحت بشائره، فالسماء صافية، والنسائم رقيقة، والجو صحو، وفي الربيع تورق الأشجار ويخضرُّ لونها، وتتفتح الأزهار ويفوح عطرها، وتبدو الأرض عروساً تخطر في أبهى حُلَلِها، وتختال في أزهى ثيابها، وترى الحياة متألقة، فَرِحَةً بقدوم الربيع. ما أجمل الربيع!.. إنه عيد الطبيعة، وبسمة الحياة.. آية الخالق سبحانه وتعالى.. وصُنع الله الذي أتقن كل شيء، جلَّ وعَلا، ما أبدع صُنعه!.

طلعت الشمس وأرسلت خيوطها الذهبية، وكانت الأطيار قد صحت قبل طلوعها، وانطلقت من أوكارها وأعشاشها سعياً وراء رزقها، وانطلقت ملكات النحل من الخلايا، يتبعها الذكور والشغالات، بدت أسراباً سابحة في الفضاء الرحيب، يا له من منظر خَلَّاب!.



يسلك النحل سبيله حيث الورود والأزاهير، وما تلبث أن تحطّ كل شغّالة فوق وردة أو زهرة، وتبادرها بتحية الصباح:

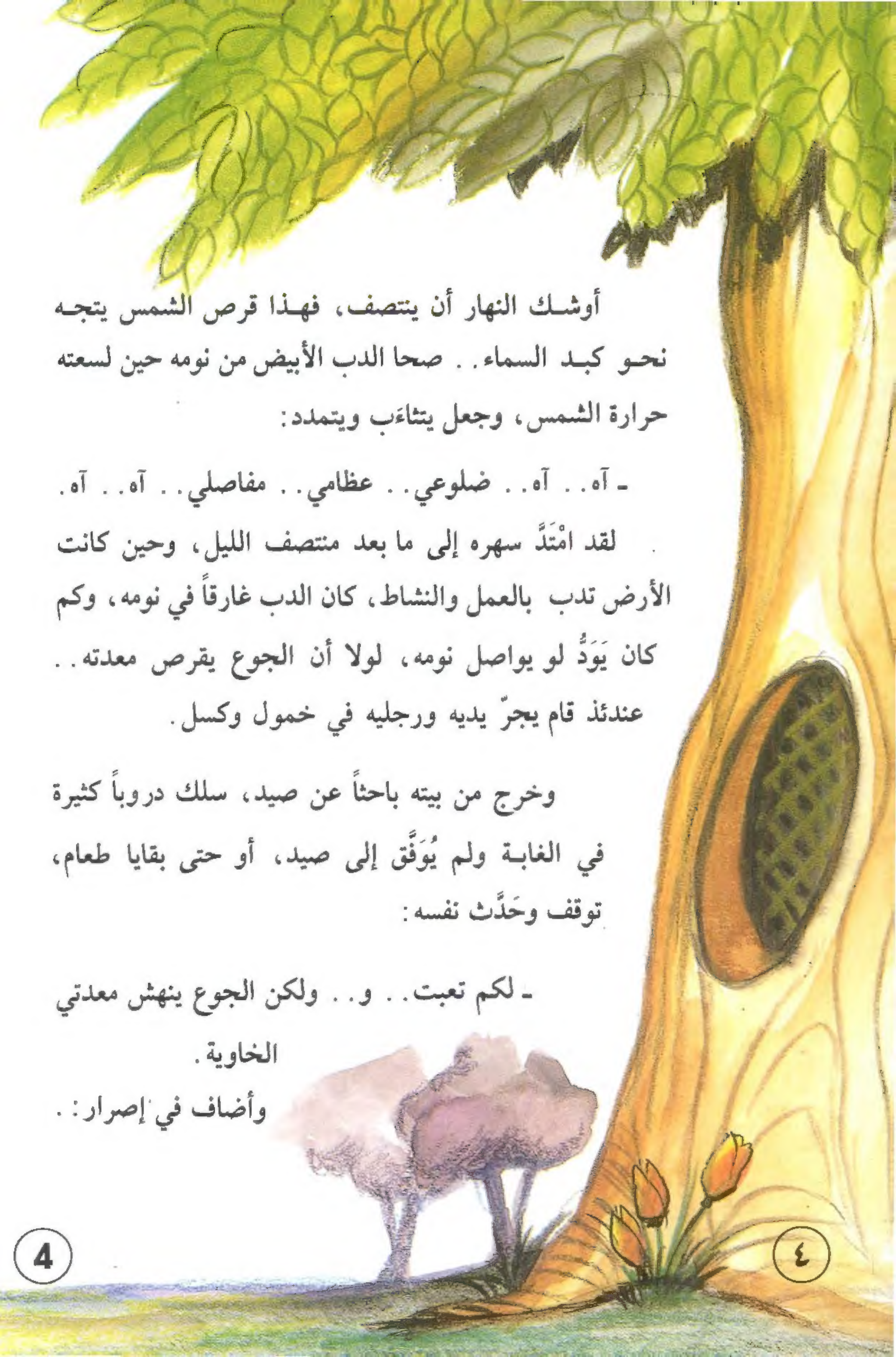
ـ صباح سعيد يا زهرتي الجميلة.

ـ مرحباً بكِ أيتها الشغالة النشيطة.

الشغالات والزهور أصدقاء منذ أَمَدٍ بعيد، ولا تقصد الشغالات الحقول والحدائق لكي تتنزه، أو لكي تلهو وتلعب، ولكنه عملها منذ خُلِقت، فتمتص الرحيق، وتروح إلى الخلايا لتخرجه من بطونها عسلاً صافياً حلو المذاق.. فيه شفاء للناس.

والنحل المُجد، لا يتأخر عن عمله أو يؤجله، ولا يكسل عن أدائه، ولا يهمله يوماً.





أوشـك النهار أن ينتصف، فهـذا قرص الشمس يتجـه نحـو كبـد السماء.. صحا الدب الأبيض من نومه حين لسعته حرارة الشمس، وجعل يتثاءَب ويتمدد:

ـ آه.. آه.. ضلوعي.. عظامي.. مفاصلي.. آه.. آه.

لقد امْتَدَّ سهره إلى ما بعد منتصف الليل، وحين كانت الأرض تدب بالعمل والنشاط، كان الدب غارقاً في نومه، وكم كان يَوَدُّ لو يواصل نومه، لولا أن الجوع يقرص معدته.. عندئذ قام يجرّ يديه ورجليه في خمول وكسل.

وخرج من بيته باحثاً عن صيد، سلك دروباً كثيرة في الغابـة ولم يُوَفَّق إلى صيد، أو حتى بقايا طعام، توقف وحَدَّث نفسه:

ـ لكم تعبت.. و.. ولكن الجوع ينهش معدتي الخاوية.

وأضاف في إصرار:.

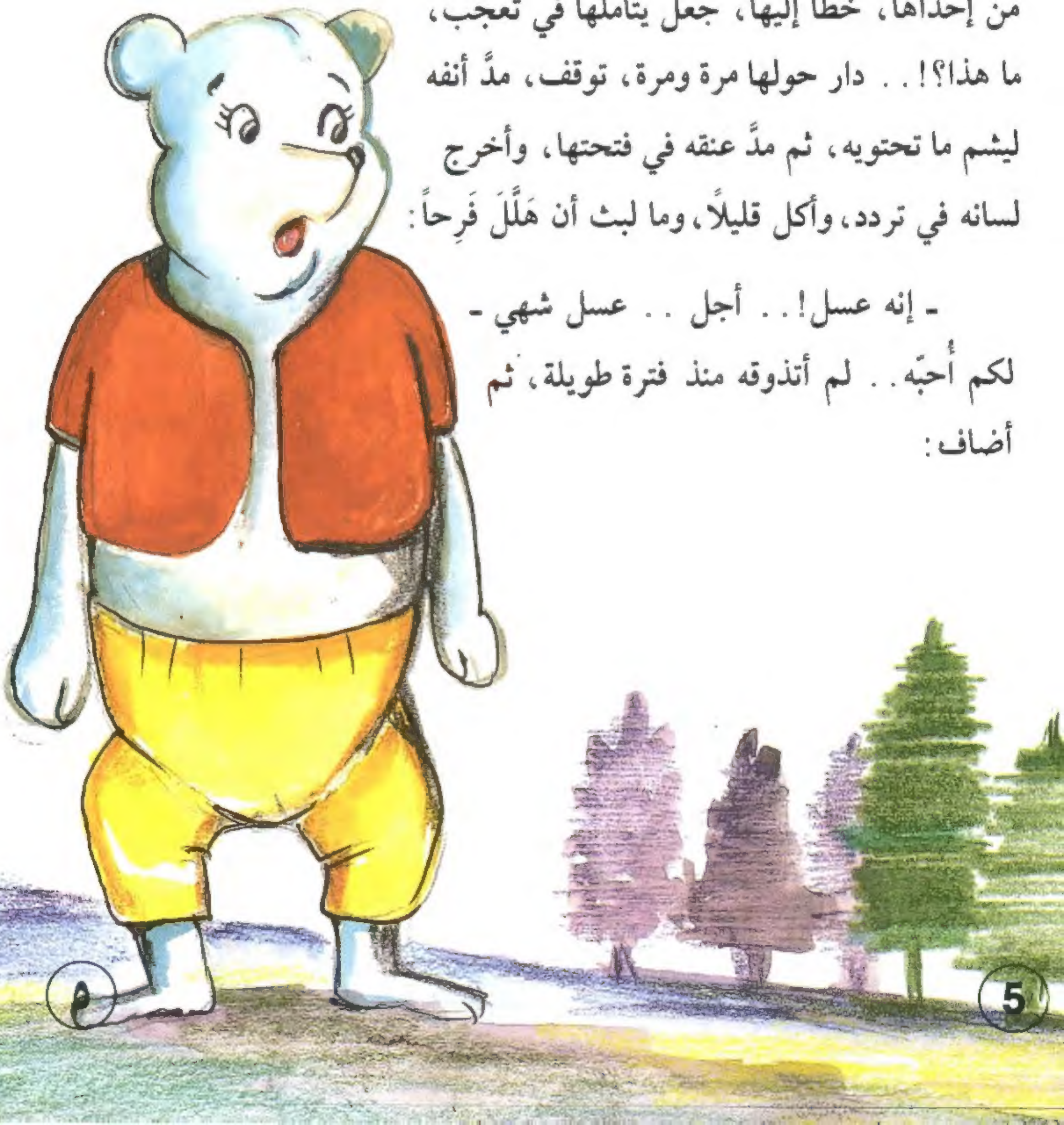
ـ يجب أن أعثر على صيد، وإلاَّ هلكتُ جوعاً. .

واصل الدب بحثه عن الطعام، يذهب في هذه الناحية، وإلى تلك الجهة، ويتوقف كل برهة يرسل طرفه هنا وهناك، وفي إحدى المرات لمح خلايا النحل، وكانت ثلاث خلايا.

ـ ما هذا؟!.

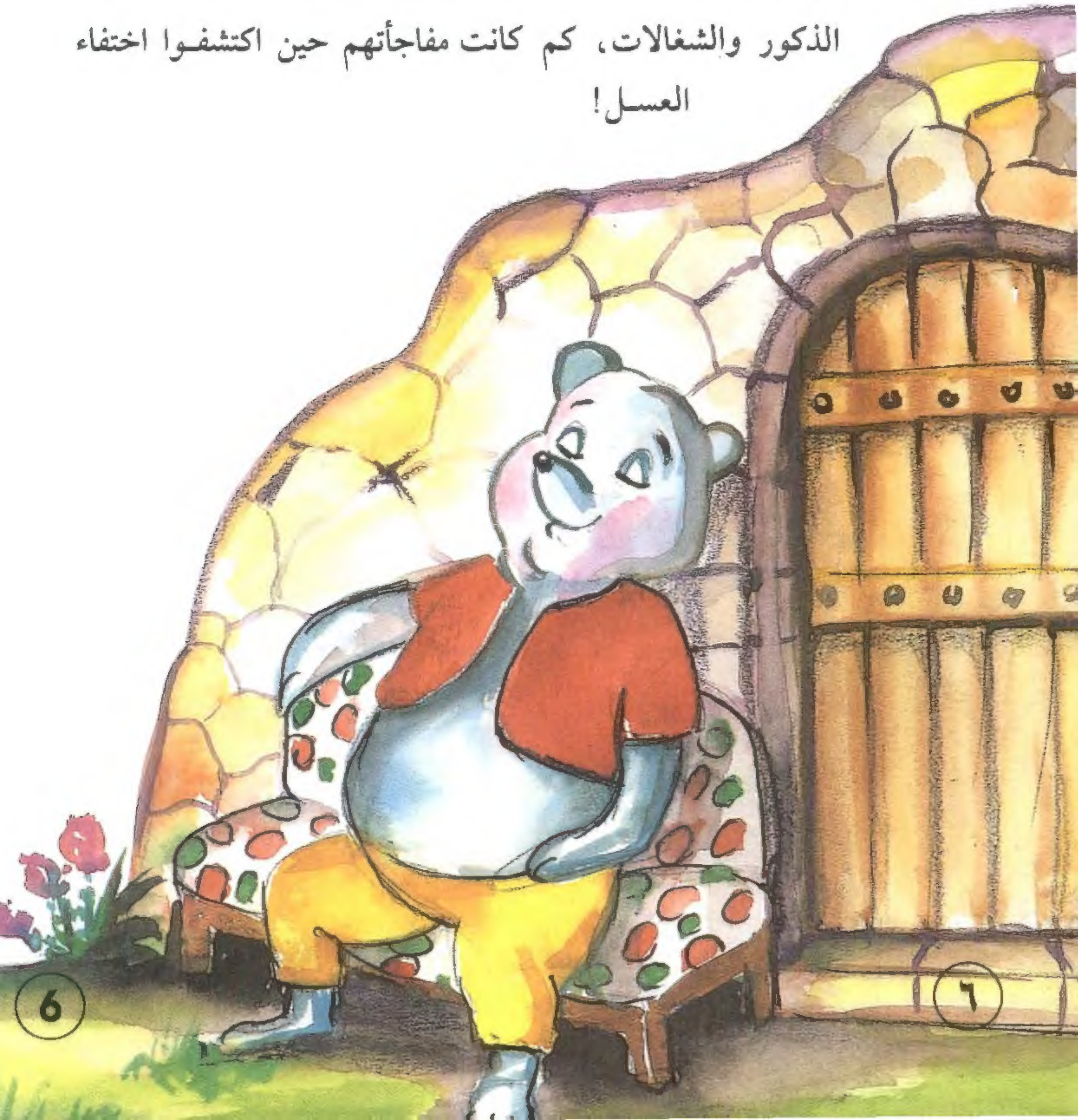
لم يُضَيِّع الوقت، وهرول مسرعاً نحو الخلايا، وتوقف على مقربة من إحداها، خطا إليها، جعل يتأملها في تعجب، ما هذا؟!.. دار حولها مرة ومرة، توقف، مدَّ أنفه ليشم ما تحتويه، ثم مدَّ عنقه في فتحتها، وأخرج لسانه في تردد، وأكل قليلاً، وما لبث أن هَلَّلَ فَرِحاً:

ـ إنه عسل!.. أجل .. عسل شهي ـ لكم أُحبّه.. لم أتذوقه منذ فترة طويلة، ثم أضاف:



يا لي من غافل! فكم رأيت هذه البيوت، ولم أكن أدري أن بطونها تمتلىء بأشهى الطعام، إنني سعيد الحظ، ويا لها من فرصة ثمينة!.. يجب أن أغتنمها. تلفّت الدب من حوله، وسرعان ما أدخل رأسه في الخلية، وجعل يأكل ويأكل حتى فرغ العسل عن آخره! ـ شبع الدب، وما لبث أن رجع إلى بيته مسروراً، فقد مَلَأَ معدته بألذّ الطعام.

رجع النحل قبل غروب الشمس، دخلت الملكة الخلية، ثم دخلت الذكور والشغالات، كم كانت مفاجأتهم حين اكتشفوا اختفاء العسل!



- استغربوا الأمر، وتعالت صيحاتهم:

- أين العسل؟! أين العسل؟!.

- لقد ضاع تعبنا - ضاع جهدنا.

جعلوا يفتشون حول الخلية، عسى أن يكون بها ثقبٌ تسرب منه العسل.. كانت الخلية محكمة الغلق، فلم يعثروا على ثقب واحد.. يا للعجب!.. لم يتعرضوا لمثل هذا من قبل! اشتد حزنهم.. وارتفع صوت الملكة غاضبة:.

- لا بد أن هناك عدوًّا سَطَا على العسل!.

طلبت شغالة الكلمة، فأَذِنَت لها الملكة فقالت:



ـ ليس لنا عَدُوٌّ سوى «الدَّبُّور». . ولا بد أنَّ أسراباً منه هجمت على الخلية فأتت على العسل كُلِّه.

واستأذنت أخرى فَتَساءلت:

ـ ماذا نصنع؟ وكيف نتصرف في هذه الكارثة؟.

وأضافت ثالثة:

ـ أجل، إنها كارثة. . فكيف نجتهد طوال العام ثم يأتي من يبدد كل شيء في ساعة واحدة؟.

لا بد أن نجد حلاًّ.

وظلوا في تحاورهم حتى وقفت نحلة عجوز، فالتزم الجميع الصمت احتراماً لها، ومشت النحلة على مهل حتى دنت من الملكة وقالت:

ـ يا ملكة النحل، لا وَقْتَ للحوار، ولا فائدة في الجدال.

تساءلت الملكة في هدوء:

ـ وماذا ترين يا جدتنا الحكيمة؟.

ـ يجب أن نفكر في الحل.





وظَلُّوا يفكـرون، وبعد قليـل قـطع الصمتَ صـوتُ الملكـة حين تساءلت:

ـ ومامشورتكِ أيها الجدة؟.

قالت العجوز في صوتٍ واهنٍ ضعيف:

ـ علينا أولاً أن نعرف ذلك الظالم الجبار.. الذي هجم على خليتنا الآمنة، ثم بعدئذ نتشاور في تدبير خطة محكمة لمقاومته وإبعاده.

أُعْجِبَ الجميع برأي الشغالة العجوز، وأَمَرَتِ الملكة بتعيين ثلاث شغالات لحراسة الخلية في فترة غيابهم في العمل.



في اليوم التالي قصد الدب الخلية الثانية، وقلبه يرقص طرباً، فهو يأكل أطيب الطعام بدون تعب وعناء، وبلا جهد.. وكان يردد في نفسه:

ـ لن أُخبر أحداً من الدببة عن كنوز العسل هذه، ويظل الأمر سرًّا، وآكل العسل كله وحدي ـ أجل.. وحدي.

ضحك الدب، ثم توقف عن الضحك خشية أن يسمعه أحدٌ فيتبعه ويكتشف كنوزه، وتلفت حوله ثم وَاصَلَ سيره حتى الخلية، وسرعان ما هجم عليها يلتهم ما أفرزته الشغالات، ولم تره الشَّغَّالات الَّلائي تَوَلَّيْنَ الحراسة، ثم انطلق الدب عائداً إلى بيته موفورَ السعادة.

وحين رجعت ملكة الخلية الثانية هي والنحل، اكتشفوا المصيبة التي حلّت بهم، وضياع مجهود الأسابيع والشهور، وتأثروا لذلك



الحدث الغريب، وبعد أن فتشوا عن العسل، اجتمعوا يتشاورون، وقد اتخذت الملكة نفس قرار ملكة الخلية الأولى.

وفي اليوم الثالث، التهم الدب عسل الخلية الثالثة، ولم تره الحارسات أيضاً، وحين عادت الملكة والنحل، فوجئوا بمصيبتهم.. وبعد التشاور فيما بينهم، اتخذت الملكة نفس القرار.

وفي صباح اليوم التالي، اجتمعت الملكات الثلاث، واتفقن على التعاون في صَدِّ المعتدي الغاشم، الذي يأكل ثمار جهدهم.



وفي ذلك اليوم، اتخذ الدب طريقه نحو الخلية الأولى، حين كانت تداعبه الأحلام، فمن من الدببة يأكل عسلاً؟.

رأَتْهُ الحارسات جميعاً هذه المرة، ولم يلبثن أن طِرْنَ إلى حديقة الأزهار، وقُمْنَ بإبلاغ الملكات الثلاث، وبإشارة متفق عليها، انطلقت الملكات الثلاث كالسهام، وانطلق من خلفهن أسراب النحل، كأسراب الطائرات المقاتلة، وسرعان ما هجمن على الدب يَلْدَغْنَهُ في أنفه وفمه وعينيه، وفي كل وجهه.. كان الهجوم مُباغِتاً للدُّبِّ، فلم يتمكن أن يفعل شيئاً، إلَّا أن يصرخ ويتقافز من شدة الألم، وما لبث أن جَرَى في هذه الناحية، وفي تلك.. ويصطدم بكل ما يصادفه، والنحل المتعاون يواصل غرس إبره الحامية في وجه الدب، وما زال الدب يصرخ بأعلى صوته، ويتقافز إلى أعلى، وسمعته طيور وحيوانات الغابة، وتعجبت لهذا الأمر، وأسرعت ناحية الصرخات لتقف على الخبر.. ووصلوا إلى ميدان المعركة، رأوا ما نزل بالدب.. تعجبوا في البداية، ولكنهم بعد أن علموا ما حدث ظلوا يضحكون عليه، وفي مقدمتهم الدببة!.

وبدون قصد داس الدب الخلية الأولى فانهارت واستحالت إلى كوم من التراب، حينئذ اشتد غيظ النحل، فشددوا هجومهم، وكثّفوا لسعاتهم، فانطلق الدب يهرول بعيداً عن الخلايا، ولم يدعه النحل أيضاً، واستمر في لسعه ولدغه حتى فرَّ بعيداً.. ثم عادت جماعات النحل سالمة.



تَورَّمت عينا الدب، كما تَورَّمَ أنفُه وفمه، وبدا وجهه كالبالونة المنتفخة الحمراء! وجعل يعدو باحثاً عن بيته الذي ضَلَّ الطريق إليه، وكان الذعر قد ملأ قلبه، وأخيراً - استطاع العثور عليه، فقفز بداخله، ووقف يلهث ويلعن حظه، ويتوجَّع من شدة الألم.. ويقول في رهبة!.

- لعن الله النحل المتعاون.. الشرس.. لن أعود إلى بيوته مرة أخرى.

واستطرد مُحَدِّثاً نفسه:

- ما أشهى العسل! وما أطيب مذاقه! ولكن.. ما أشرس النحل! وما أَقْسَى لسعاته!.. آه.. آه...

ثم يضيف الدب:



ـ لقد أخطأتُ في حق النحل. ولكني . . ولكني ما قصدتُ ذلك . . عموماً . . منذ هذه الليلة سأنام مبكراً لأصحو مبكراً لأسْعَى وراء رزقي.



وتعاون النحل في بناء الخلية، واستعادوا أمانهم، واستمرت حياتهم البسيطة النشيطة، يغدون صباحاً إلى الحدائق، يعانقون الورود ويداعبون الزهور ويمتصون رحيقها، ويروحون إلى الخلايا ليخرجوا من بطونهم شهداً شهياً مختلفاً ألوانه.. فيه شفاء للناس.

سلسلة أصدقائي

الطبعة الثانية

١٤١٩ هـ ـ ١٩٩٨م

رقم الإيداع ٤٨٣١ لسنة ١٩٩٣

الترقيم الدولي

I.S.B.N

977 - 270 - 084 - 0

الدار المصرية اللبنانية طباعة . نشر . توزيع

١٦ شارع عبد الخالق ثروت - ت ٣٩٢٣٥٢٥ - ٣٩٣٦٧٤٣ فاكس ٣٩٠٩٦١٨ برقياً دار شادو - ص ب ٢٠٢٢ - القاهرة

AL - DAR AL - MASRIAH AL - LUBNANIAH Printing - Publishing - Distribution

16 Abd El Khalek Sarwat St. P.O Box 2022 Cairo - Egypt Tel 3923525-3936743 Fax 3909618 Cable Dar Shado